المكلفين من أصول وفروع، فإنما هي حجج للحصول على تصديق الأصول، ومن ثم الفروع التي تتبنى الأصول.

فالحجة البالغة الربانية هي بصائر الوحي رسولياً ورسالياً، والحجج الباطنة هي ذرائع بالغة للبلوغ إلى تلك الحجج البالغة.

ومن غريب الوفق التوافق العددي بين البصر والبصيرة، فإن كلّا متكررة بمختلف الصيغ (١٤٨) مرة في القرآن.

ذلك، ومن بصائر الوحي حامله المرسل به ﷺ فإن حياته ولا سيما الرسالية منها بصائر تشرق بأنوار الهدى ابتعاداً عن الردى، فإنه المنذر المبشر بالقرآن، بصيرة معصومة بما عصم الله، ينذر ويبشر بهذه البصائر ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[١].

فحين تفتح أبصار القلوب إلى بصائر القرآن فهنالك الإبصار التام ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ بالبصائر القرآنية، فاتحاً بصيرته ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ ومن عمى عنها ﴿فَعَلَيْهَا﴾ حيث أعمى على نفسه تلكم البصائر ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[٢] فليس ليظل ضالاً مع هذه البصائر إلّا معطل الحواس، مغلق المشاعر، مطموس الضمير، المتغافل المتجاهل كالحمير، بل هو أضل سبيلاً.

ذلك ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[٣] من ربي لأحملكم على بصائره فتهتدون، إنما أنا نذير بها ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾.

أجل، فالقرآن البصائر هو مادة الهدى، ورسول القرآن هو الداعية بها،

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٨.

دون حَوْل له ولا طَوْل في الحمل على الهدى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ المبصِر المبصَر بالحجة البالغة الدامغة ﴿نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ بوحي القرآن، وآفاقية وأنفسية، تصريفاً في تكرير البيان، ردّاً من حالة إلى أخرى، تحليقاً على كلّ الأحوال المبصرة للعقول والقلوب، إخراجاً لها عن الأوحال في كلّ الأحوال.

ولأن التصريف هو تكثير الصرف: الرد من حال إلى حال، فتصريف الآيات البصائر هو تكثير ردها إلى مختلف الأحوال المبصرة دون إبقاءٍ لبصيرة على أية حال.

ذلك ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ هذه الآيات عن كتابات السماء عند علمائها، أم أية تقوُّلة ليست لتصارع بصائر القرآن، فلا دور في معرض الفِطَر والعقول لفرية اختلاق القرآن من دون وحي، حيث القرآن هو نفسه حجة بالغة لإثبات وحيه لأعلى قممه المرموقة ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[٢]!.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾: القرآن، بتصريف الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحقَّ عن الباطل، ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ لهذا الرسول حول قرآنه ﴿دَرَسْتَ﴾ قولة ذاهبة في الأثير هباءً لا سناد لها، فليقولوا إذاً أين درس ذلك الدرس الذي يفوق كافة دروس الوحي فضلاً عن سائرها؟ هل درسه عند علماء الكتاب، والقرآن مهيمن على وحي الكتاب، نقضاً للمدسوس فيه، وتكميلاً لما نقص، وترميماً لما تقلَّص، فكيف يكون القرآن - إذاً - درساً عن سائر الكتاب

(١) سورة النحل، الآية: ٩.
(٢) سورة فاطر، الآية: ١٤.

بعلمائه أو سواهم، ولأنه أعلى من كلّ كتب السماء محتداً؟ فليكن كلّ تلميذ أعلم ممن تلمذ عليه! إذاً فلتكن التوراة درساً عن أساطير الأولين اكتتبها موسى فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً!.

وليكن - كذلك - كلّ كتاب نابغٍ نابعاً عما دونه من كتاب، وهكذا الأمر في كلّ ناصع واصب من العلوم والأفكار، نابعة من منابع خليطة بكلّ غث وسمين وكلّ خائن وأمين!.

وكيف يقولون ﴿دَرَسْتَ﴾؟ ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1] ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[3] - ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾[4] [5].

أجل إنه ﷺ درس القرآن ولكن أين؟ في مدرسة الوحي القمة، عند الله الذي يعلم السر في السماوات والأرض، كما نعلم ذلك العلم السِّر في القرآن.

فكلّ تلميذ يُعرف محتده الدراسي من درسه نفسه، فيُعرف من هو الذي

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٦.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٣.
(٤) سورة الفرقان، الآيتان: ٥، ٦.
(٥) راجع الفرقان في تفسير هذه الآيات لزيادة الاطلاع على فرية الاكتتاب والدراسة المحمدية والرد عليها.

علَّمه، ودرْس القرآن لا يناسب إلّا ساحة الربوبية في أعلى قمم الوحي الرباني.

وهكذا كان المرسلون يستدلون لرسالتهم الربانية بربانية أقوالهم وأحوالهم وأعمالهم كما نسمع رسل المسيح من الله قائلين أمام الناكرين:

﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[١] حيث يوجِّهون في ذلك البرهان العطيف اللطيف أنظار الناكرين إلى حالاتهم ومقالاتهم، برهنةً بها على محتد من أرسلهم.

وترى ما هو المعطوف عليه لـ﴿وَلْيَقُولُواْ...﴾ وما هي المناسبة للمعطوفين المتناحرين؟ هنا معطوف عليه معروف من صوغ الكلام كـ«اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وعشياً» و«إنه سحر يؤثر» أو شعر أو كهانة أم به جنة، ولكي تكمل حجة الله البالغة على الذين يعلمون أو لا يعلمون، ثم لا ضير إذاً أن يقول المجاهيل: ﴿دَرَسْتَ﴾ فاللَّام في ﴿وَلْيَقُولُواْ...﴾ تعني - فيما تعنيه - غايةً للمجاهيل في واجهة القرآن، فإن كلّ محاولاتهم في إسقاط حجة القرآن البالغة داحضة فليقولوا درست أم أية قولة أو احتيالة ضده، ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فقالة ﴿دَرَسْتَ﴾ هي قالة الذين لا يعلمون تقصيراً منهم حسيراً وتحسيراً قصيراً لا يبلغون فيه إلى غايتهم المضللة، وقد تكون اللام للغاية، غاية للذين كفروا امتحاناً لهم فامتهاناً، كما هي غاية للذين آمنوا، غاية شاردة أو واردة.

ذلك، وقد تصلح ﴿دَرَسْتَ﴾ غاية ربانية إلى غايتهم حيث ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٢] - ﴿يُضِلُّ

(١) سورة يس، الآية: ١٦.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[١] ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[٢] ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[٣].

وقد تعني «اللام» في «ليقولوا» الأمر، فهو أمر تعجيز، أم بيان حال لهم تقتضي هذه القولة، فلا عطف إذاً مع أمر الأمر، وقد تعني الواو كلا العطف والاستئناف جمعاً بين الغاية والأمر، والحاصل هو مثلث المحتملات.

أجل ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ العميق الهدى العريق المدى ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ حجة بالغة لا تبقى معه حجة لمن يقول ﴿دَرَسْتَ﴾ وتكون حجة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وهكذا تكون حجة الله البالغة قاطعة للأعذار حيث لا يتبقى معها أية عاذرة إلّا ماردة شاردة غادرة.

ذلك، وكيف تعقل فرية درس القرآن بما ليس نابعاً من بيئتهم ولا بيئة أهل الكتاب، فلا عهد للبشر على طول زمن الرسالات - فضلاً عن سواها - أن يجدوا ذلك المستوى السامق الشاهق الرفيع في صيغة التعبير وصبغة المعنى المعبّر عنه، فقد ينتهي ذلك التصريف الظريف في مختلف التحرِّي عن الحق والتجري عليه، إلى نتيجتين متقابلتين: ﴿دَرَسْتَ﴾ و﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ . . .﴾ فأما الذين لا يريدون الهدى، العائشون الردى، فهؤلاء هم يحاولون أن يجدوا تعليلاً

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦.
(٢) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٤، ١٢٥.
(٣) سورة المدثر، الآية: ٣١.

لهذا القرآن، وغايتها ﴿دَرَسْتَ﴾ المنكرة في كافة الأعراف كتابية وسواها، إذ ما كان أحد من علماء الكتاب يعرف ذلك المستوى، حيث المسافة شاسعة بينه وبين سائر الكتب السماوية فضلاً عما سواها.

فالعلم - فطرياً وعقلياً وفكرياً وتجريبياً - فضلاً عن علم الكتاب - يصدق وحي القرآن: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أية مرحلة من مراحله هذه.

وأما الذين يقولون ﴿دَرَسْتَ﴾ فقد دَرَست عنهم معالم الهدى حيث تجاهلوا عن كلّ بنود العلم والمعرفة، واثَّاقلوا وأخلدوا إلى أرض الجهالة والغباوة.

وحين ينقسم المرسل إليهم بهذا القرآن فريقين اثنين، يصدر أمر الله العلي العِلوي أن يتبع ما أوحي إليه، وكفاه حجة بالغة في كلّ الحقول، صوغاً لحياته - ككلّ - بصياغته، وصبغاً لها بصبغته، إذ لا حجة له أبلغ من حجته طمأنة لخاطره الشريف بذلك الوحي الظريف الطريف دون فشل ولا فتور من تقولهم ﴿دَرَسْتَ﴾ وما أشبه فإنه هباء في العراء ونقش في الماء والهواء.

فـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] وما تلكم القيلات الغائلات على القرآن مما تغتاله.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

﴿ٱتَّبِعْ﴾ رسولياً ورسالياً ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ من كتابه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ يوحي إليك غيره ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بعد كامل الإنذار بحجج

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

الله، إعراضاً عن الإشتغال بهم بعد الإياس، وعن أن تأسف لهم أو عن أذاهم إذ ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[١].

و﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾ هنا دون «الله» أو «رَبِّ الْعالَمِينَ» تعبيرة قاصدة، أن الذي رباك بتلك التربية الغالية هو الذي يرعاك في تلك الدعاية الرسالية، دونما فشل، فجدَّ في مصيرك بمسيرك دونما أية وقفة فربك يرعاك ولن تجد من دونه ملتحداً.

وقد تعني ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ بعد أمر الإتباع - فيما عنت وقبل أمر الإعراض - أن عليك أن تحور حور ذلك المحور الوحيد من التوحيد، فلا يزعزعك الطوارئ القواصف، ولا تحركك العواصف، فلا يعني الإعراض عنهم - فيما عنى - الرضا بإشراكهم حين لا تؤثر فيهم دعوتك، فعلى الداعية أن يعلِّق أمله وعمله بالذين يسمعون الدعوة مهما قلوا، دون تعليق على من سواهم مهما كثروا إذا فلّوا.

وتراه ﷺ هنا - بعد - يؤمر بالإعراض عنهم حتى في مواصلة الدعوة؟ كلَّا! فإنها ككلّ ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾[٢] فإنما الإعراض خاص بغير حقل الدعوة الرسالية: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[٣].

فذلك إعراض فيما تضر مواصلته: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ. . .﴾[٤] فبعد ذلك واصِلهم في دعوتكم حيث تفيد - لأقل تقدير - عذراً لك ووزراً لهم وقطعاً لحجتهم في لجتهم.

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.
(٢) سورة المرسلات، الآية: ٦.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٩٤.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

وأعرض عن أذاهم فإن الله لهم بالمرصاد: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾[١] اللهمَّ إلّا فيما تؤمر بجهادهم دفاعاً وسواه.

وأعرض عن أن يؤثر في دعوتك المتواصلة تعنُّتهم وعنادهم، بل وعلى الداعية الربانية المزيد من قوة الدعوة حين يرى متصلبين في تكذيبها، متألبين في إخفاق صداها وإخناق مداها وإخماد نائرتها.

فالداعية المؤمنة يزداد قوة في دعوته حين يعرقل مسيره ومصيره بعراقيل المكذبين، دون أن يفشل في دعوته أو يخمل في رعايته.

كذلك ﴿وَأَعْرِضْ﴾ عن الرجاء فيهم أن يؤمنوا قطعاً لآمالك عنهم إذ:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾:

فـ ﴿وَلَوْ﴾ تحيل تلك المشيئة الإلهية المسيِّرة لسلبية الإشراك تكويناً، مهما شاء ألّا يشركوا تشريعاً، وكذلك المشيئة الموفِّقة لهم لترك الإشراك، فإنها تختص بمن شاء ترك الإشراك وتحرَّى عن الحق، فكما الله لا يشاء حملهم على الهدى، كذلك لا يشاء توفيقهم لها حين يستحبون الردى على الهدى، أم لا يشاؤون الهدى[٢].

فاعلم يا رسول الهدى أنهم ليسوا في إشراكهم بالله متغلبين على مشيئة الله، فـ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ فإن قضية الرحمة والحكمة الربانية التخيير بعد الدلالة دون إجبار وتسيير، فمن استرحم الله رحمه ومن أعرض عن الله حرمه، ضابطة ثابتة في حقلي الضلال والهدى.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٣٠.

(٢) نور الثقلين ١: ٧٥٦ عن مجمع البيان في تفسير أهل البيت عليهم السلام «لو شاء الله أن يجعلهم كلهم مؤمنين معصومين حتى كان لا يعصيه أحد لما كان يحتاج إلى جنة ولا إلى نار ولكنه أمرهم ونهاهم وامتنحهم وأعطاهم ماله عليهم به الحجة من الآلة والاستطاعة ليستحق الثواب والعقاب».

ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحافظ عليهم شاؤوا أم أبوا، فإنما أنا الحفيظ فيما يجب الحفاظ أم هو راجح، ثم:

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تكلّ أمر ضلالهم وهداهم، فلا وكالة ولا حفاظة ولا نيابة للرسول ﷺ - فضلاً عمن سواه - على أحد في تكوين أو تشريع، في تسيير أم توفيق أماذا من غير رسالة الله حملاً ودعوة ودعاية.

إذاً فلا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون، ولا تأسف على ما يضلون فإنْ هم إلّا مضلي أنفسهم وما يشعرون.

ذلك! ومن الإعراض عنهم عدم مقابلتهم بمثل ما هم قائلون أو عاملون، أو سبهم أم سب آلهتهم التي ألهتْهم فيسبوا الله عدواً بغير علم:

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾:

السب لغوياً هو الشتم الوجيع، وهو النسبة السيئة غير الواقعة، أو الواقعة التي تستحق الشر، وأما السيئة الجاهرة الظاهرة أو التي يجب إفشاءها حفاظاً على الأهم فقد لا يسمى إظهارها بقال أو فعال سباً مهما حسبها صاحبها سباً.

ثم ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ قد تعم كلا العابدين(١) والمعبودين(٢)، فـ ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ هم من دون الله، هم المعبودون و﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ غير الله ﴿مِّن دُونِ

(١) نور الثقلين ١: ٧٥٧ في أصول الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه: وإياكم وسب أعداء الله حيث يسمعونكم فيسبوا الله عدواً بغير علم.

(٢) المصدر عن تفسير القمي حدثني أبي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال سئل عن قول النبي ﷺ: إن الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ليلة ظلماء؟ فقال كان المؤمنون يسبون ما يعبد المشركون من دون الله فكان المشركون يسبون ما يعبد المؤمنون فنهى الله المؤمنين عن سب آلهتهم لكيلا يسب الكفار إله المؤمنين فيكون المؤمنون قد أشركوا بالله من حيث لا يعلمون فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟...﴾ [الأنعام: ١٠٨].

ٱللَّهِ﴾ هم العابدون، وكلاهما يرجعان إلى عبادة ما سوى الله فهي - إذاً - مصب السب المنهي عنه، سباً للمعبودين أم والعابدين ولكن سب المعبودين هو الذي يحرض العابدين على أن يسبوا الله.

وليس التحريم هذا أصلياً حيث إن هذه العبادة - والمعبودين - تستحق الشتم الوجيع، بل هو مَصلَحي لحرمة الاستسباب ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾[١].

وهذه ضابطة ثابتة أن الأمر المباح في نفسه بل والراجح أو الواجب، وجاه الغير إذا سبَّب محظوراً أشد منه أصبح محظوراً بذلك السبب، ولا تشمل الواجبات الشخصية كأن تصلي وهي تسبِّب الهزء من الدين، أو تترك الخمر وهو يسبب ما أشبهه من هزء وسواه، فإن فرائض الله سلبياً وإيجابياً ليست لتُترك حيث تسبِّب تخلفات الآخرين، فهل تحرم الدعوة إلى الله ببالغ الحجة إذا سببت التكذيب بها من الكافرين؟!.

فإنما المحظور هو أن توجه إلى المتخلفين عن الله، أو إلى معبوديهم خطاباً وعتاباً يسبب سبَّ الله أم سواه من حرمات الله، وبإمكانك أن تسكت أو تغيِّر التعبير جدالاً بالتي هي أحسن.

ذلك، وليس سبِّ الذين يدعون من دون الله من قضايا الدعوة إلى الله، بل وقد يبعِّدهم أكثر مما هم، أو يَحرضهم على سبِّ الله عدواً بغير علم، وهم معترفون بالله في أصله، مهما أشركوا به ما سواه[٢].

---

(١) نور الثقلين ١: ٧٥٧ في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: في التوراة مكتوب فيما ناجى الله جلّ وعزّ به موسى بن عمران عليه السلام يا موسى اكتم مكتوم سري في سريرتك وأظهر في علانيتك المداراة عني بعدوي وعدوك من خلقي ولا تستسب لي عندهم بإظهار مكتوم سر فتشرك وعدوك عدوي في سبي.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٨ عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ...﴾ [الأنعام: ١٠٨] قال: قالوا يا محمد لتنتهين عن سبب آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدواً بغير علم.